**كيف تم تفتيت الدولة الإسلامية الى دويلات؟**

**محمد سلامة الغنيمي**

الاختلاف والتفرق حالة مرضية كانت في الامم السابقة، لاسيما اليهود والنصارى، الذين حذرت منهم نصوص التشريع الاسلامي، قرآناً وسنة، قال تعالي " **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ "[[1]](#endnote-1)** .

بيد أن متأخروهم قد استفادوا من دروس سابقيهم، فعملوا علي الوحدة والاجتماع رغم شدة ما بينهم من عداوة وبغضاء، لا لشيء إلا لقهر المسلمين واستدامة سيطرتهم علي مقدرات الامم والشعوب، حتي وصل الامر إلي أن يسعي بابا الفاتيكان إلي تبرأة اليهود من جريمتهم التاريخية في سفك دم المسيح ( علي حد زعمهم )، يبدوا أنهم يريدون أن يزيلوا كل ما من شأنه أن يكون عائقاً دون الاجتماع والتعاون، حتي لو كانت عقيدة دينية لدي الطرفين تطاولت عليها الفرق وآمنت بها الاجيال.

وبذلك تتحقق نبوءة النبي صلى الله علية وسلم في قوله:" يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فَقَال قَائِل وَمَنّ قِلَّة نَحْن يَوْمئِذ قَال بَل أَنْتُم يَوْمئِذ كَثِير وَلَكِنَّكُم غُثَاء كَغُثَاء السَّيْل ولينزعن اللَّه مَن صُدُور عَدُوَّكُم الْمَهَابَة مِنْكُم وليقذفن اللَّه فِي قُلُوبَكُم الْوَهْن فَقَال قَائِل يَا رَسُول اللَّه وما الْوَهْن قَال حُبّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَة الْمَوْت "[[2]](#endnote-2) فَهُم قَد يَخْتَلِفُون فِي كَلّ شَيْء لَكِنَّهُم يَجْتَمِعُون عَلَيّ قَمْع النَّهْضَة الاسلامية وَتَمْزِيق الامة الاسلامية وواد أَي يَقَظَة قَد تَقُوم ، لِتَدُوم لَهُم السَّيْطَرَة عَلَيّ الْعَالِم أَطْوَل فَتْرَة مُمْكِنَة ، فَعَقَدُوا المؤتمرات وشكلوا الْهَيْئَات وَكُونُوا المنظمات الَّتِي تَعْمَل عَلَيّ ذَلِك الْغَرَض الْمُوَحِّد .

فانتهجوا فِي سَبِيل تَحْقِيق ذَلِك سِيَاسَة فَرَّق تَسُدّ وَأَن الشَّجَرَة إِنَّمَا يَقْطَعُهَا أَحَد أَغْصَانِهَا ، فَيَكُون الْمُسْلِمِين كَاَلَّذِين يُخْرِبُون بُيُوتِهِم بِأَيْدِيهِم ، وينوبون عَن أَعْدَائِهِم فِي مهمتهم، وَبُعْد مَا فَشُلَّت كَلّ محاولاتهم الْقَدِيمَة فِي السَّيْطَرَة عَلَيّ بِلَاد الاسلام بِقُوَّة السِّلَاح فَأَيْقَنُوا أن الْمُسْلِمِين لا يَهْزِمُون أبداً فِي مَعَارِك السِّلَاح ، فاستفادوا مَن وَصِيَّة لويس التَّاسِع وَمَنّ أَفْكَار المنصرين والمستشرقين.

وَقَد اقبسوا هَذِه السِّيَاسَة الْمَعْنِيَّة بِتَفْرِيق الشُّعُوب الاسلامية مَن تعاليم دِينِهِم المحرفة، فَالرَّبّ عَلَيّ حَدّ زَعْمِهِم لا يَسْتَطِيع أن يَنْتَظِر حتي يَبْنُوا مَدِينَتِهِم وينافسوه فِي مَلَكُوتِه .... وَكَأَنَّمَا هُو مستعمر أوروبي يَسِير وَفْق سِيَاسَة فَرَّق تَسُدّ ، فَفَرَّق الْبَشَر ، حَتَّى يَحْكُم قَبَضْته عَلَيْهِم .

جَاء فِي سَفَر التَّكْوِين أن الرَّبّ الاله خَشِي عَلَيّ مَمْلَكَتِه مَن الزَّوَال وَحُكْمَه مَن الِانْهِيَار ، عِنْدَمَا رَأَى الْبَشَر مُتَّحِدَيْن ومتحابين، يَبْنُون مَدِينَة كَبِيرَة وبرجها فِي السَّمَاء ، فَدَعَا مَلَائِكَتَه وَنَزَّل وَحَطْم مَدِينَتِهِم ، وَبُلْبُل أَلْسِنَتِهِم وَفَرَّقَهُم فِي الارض ، حتي لا ينافسوه فِي مِلْكِه وَمَلَكُوتِه ، تَعَالِي اللَّه عَن ذَلِك علواً كبيراً[[3]](#endnote-3) .

وَمَنّ هُنَا بدأوا فِي إضْعَاف الْخِلَافَة الاسلامية أولاً، بِالْحُرُوب الداخلية، وَنَزْع رُوح الاسلام وَرَوَابِطِه مَن نُفُوس الْمُسْلِمِين ، وَبَثّ النزاعات الْعِرْقِيَّة ، وَمَنّ ثُمّ هَدَم الْخِلَافَة الاسلامية تماماً، الْيَهُود بِأَمْوَالِهِم والنصارى بسلطانهم، رَغِم مَا بَيْنَهُم مَن عَدَاوَة وبغضاء.

شجعوا حُكَّام الاقاليم التَّابِعَة لدولة الْخِلَافَة عَلَيّ الْعِصْيَان وَالِانْقِلَاب عَلَيّ دُولَة الْخِلَافَة وَكَسَر عَصًا الطَّاعَة ، مِثْلَمَا فَعَلُوا مَع مُحَمَّد عَلَيّ ، فَقَد عَمِلُوا عَلَيّ تَقْوِيَة شَوْكَتُه ، وَبَسْط سُلْطَانِه عَلَيّ مِصْر وما حَوْلَهَا ، وساندوه فِي حُرُوبِه ضِدّ جَيْش الْخِلَافَة الْعُثْمَانِيَّة ، وَلَمًّا كَاد مُحَمَّد عَلَيّ أن يَقْضِي عَلَيّ الْخِلَافَة ، سَارِعُوا بصده وَإِيقَاف تَوَغُّلِه ، خوفاً مَن الْقَضَاء عَلَيّ الْخِلَافَة الْعُثْمَانِيَّة وَإِنْشَاء خِلَافَة بديلة عَنْهَا ، فَهُم دَائِمًا يَعْمَلُون عَلَيّ توازان دَوَائِر الصِّرَاع ، لِاسْتِنْفَاذ الْقُوَى .

وَمَنّ أَجَل تَنْفِيذ هَذَا الْفِكْر الْخَبِيث تَمّ انْعِقَاد مُؤْتَمِر كامبل، الَّذِي دَعَا إلَيْه حِزْب الْمُحَافِظِين البريطاني، وَاسْتَمِرّ جِلْسَات هَذَا الْمُؤْتَمَر مَن 1905 إلَيّ 1907 فِي لندن، بِدَعْوَة سَرِيَّة مَن حِزْب الْمُحَافِظِين البريطاني بِهَدَف إيجَاد آلِيَّة تُحَافِظ عَلَيّ تَفُوق ومكاسب الدُّوَل الاستعمارية، وانعقد الْمُؤْتَمَر بِحُضُور كلاً مَن فرنسا وهولندا وبلجيكا وإسبانيا وإيطاليا، وَقَد حَضَر الِاجْتِمَاعَات كِبَار عُلَمَاء التَّارِيخ وَالِاجْتِمَاع وَالِاقْتِصَاد وَالزِّرَاعَة والجغرافيا والبترول.

ولقد تَوَصَّل الْمُجْتَمِعُون إلَيّ نَتِيجَة مُفَادُهَا :" إن الْبَحْر الْمُتَوَسِّط هُو الشِّرْيَان الْحَيْوِيّ للاستعمار، لأَنَّه الْجِسْر الَّذِي يَصِل الشَّرْق بِالْغَرْب وَالْمَمَرّ الطَّبِيعِيّ إِلَى القارتين الاسيوية والافريقية وَمُلْتَقَى طَرَق الْعَالِم ، وأيضاً هُو مَهَّد الاديان والحضارات، والاشكالية فِي هَذَا الشِّرْيَان أَنَّه يَعِيش عَلَيّ شواطئه الجنوبية وَالشَّرْقِيَّة بِوَجْه خَاصّ شُعَب وَاحِد مُتَوَفِّر لَه وَحِدَّة التَّارِيخ وَالدِّين وَاللِّسَان .

وَأَبْرَز مَا جَاء فِي توصيات هَذَا الْمُؤْتَمَر :

* الابقاء عَلَيّ شَعُوب هَذِه الْمِنْطَقَة مُفَكَّكَة جَاهِلَة مُتَأَخِّرَة :

وَعَلِيّ هَذَا الاساس قاموا يَتَقَسَّم الْعَالِم بِالنِّسْبَة إلَيْهِم إلَيّ ثَلَاث فِئَات

* الْفِئَة الاولي:

دُوَل الْحَضَارَة الْغَرْبِيَّة المسيحية ( دُوَل أوروبا وأمريكا الشَّمَالِيَّة وأستراليا ) وَالْوَاجِب تُجَاه هَذِه الدُّوَل هُو دَعِّم هَذِه الدُّوَل مادياً وتقنيا لِتَصِل إلَيّ أَعَلَيّ مُسْتَوِي مَن التَّقَدُّم والازدهار.

* الْفِئَة الثَّانِيَة :

دُوَل لا تَقَع ضَمِن الْحَضَارَة الْغَرْبِيَّة المسيحية وَلَكِن لا يُوجَد تَصَادُم حضاري مَعَهَا ولا تُشْكِل تهديداً عَلَيْهَا ( كدول أمريكا الجنوبية واليابان وكوريا وَغَيْرهَا ) وَالْوَاجِب تُجَاه هَذِه الدُّوَل هُو احْتِوَائِهَا وإمكانية دعمها بِالْقَدْر الذى لا يُشْكِل تهديداً عَلَيْهَا وَعَلِيّ تَفَوُّقِهَا .

* الْفِئَة الثَّالِثَة :

دُوَل تَقَع ضَمِن الْحَضَارَة الْغَرْبِيَّة المسيحية وَيُوجَد تَصَادُم حضاري مَعَهَا وَتُشْكِل تهديداً لتفوقها ( وَهَى الدُّوَل الاسلامية بِشَكْل عَامّ ، وَالْعَرَبِيَّة بِشَكْل خَاصّ ) وَالْوَاجِب تُجَاه هَذِه الدُّوَل هُو حِرْمَانِهَا مَن الدعم وَاكْتِسَاب الْعُلُوم وَالْمَعَارِف التَّثْنِيَة وَعُدِم دعمها فِي هَذَا الْمَجَال وَمُحَارَبَة أَي اتِّجَاه مَن هَذِه الدُّوَل لامتلاك الْعُلُوم التقنية.

* مُحَارَبَة أَي تَوَجَّه وصولي فِيهَا :

وَلِتَحْقِيق ذَلِك دَعَا المؤتمرون إلَيّ إقَامَة دُولَة فِي فِلَسْطِين تَكُون بِمَثَابَة حَاجِز بُشْرَى قُوَى وَغَرِيب ومعادى، يَفْصِل الْجُزْء الْأَفْرِيقِيّ مَن هَذِه الْمِنْطَقَة عَن الْقِسْم الأسيوي، وَاَلَّذِي يَحُول دُوْن تَحْقِيق وَحِدَّة هَذِه الشُّعُوب ، وَتَكُون لِهَذَا الْجِسْم أَدْوَار ثَلاَثَة :

1. يَفْصِل الْمَشْرِق الْعَرَبِيّ عَن الْمَغْرِب الْعَرَبِيّ .
2. ولاءة لِلْغَرْب .
3. يُعَطِّل نَهْضَة هَذِه الْمِنْطَقَة .

فَتَوَجَّه الْيَهُود بقيادة حاييم وايزمان- أَشْهُر شَخْصِيَّة صهيونية بَعْد تيودور هيرتزل – إِلَى تِلْك الدُّوَل يَعْرِضُون أَنْفُسِهِم ، أن يَكُونُوا هُم هَذَا الْجِسْم الْغَرِيب ، وَبِالْفِعْل اسْتَطَاع حاييم وايزمان أن يَحْصُل عَلَيّ وَعَدّ بلفور، وكان لَه الدُّور الاساسي فِي ذَلِك .

وَعَلِيّ ذَلِك فَقَد شَكْل هَذَا الْمُؤْتَمَر النَّوَاة الاساسية الَّتِي انْبَثَق عَنْهَا كَلّ المخططات والمؤامرات الهادفة إلَيّ تَقْسِيم دُوَل الْخِلَافَة الاسلامية، وَتَقْسِيمُهَا إلَيّ دويلات ذَات حُدُود حُرَّة حيادية لِتَكُون بِمَثَابَة بُؤْرَة لِلْخِلَاف وسبباً لِلنِّزَاع .

وَقَد ارتكزوا فِي مُهِمَّة إسْقَاط دُولَة الْخِلَافَة إلَيّ عِدَّة اتجاهات، تَكْمُل بَعْضُهَا بعضاً لِتَحْقِيق الْغَرَض الْمَعْنِيّ .

* خَلَق طَبَقَة مَن أَبْنَاء الْمُسْلِمِين تتبني مَذَاهِب وَأَفْكَار هدامة، تنخر فِي عِظَام الدّيْن الاسلامي، وَتَعْمَل عَلَيّ زَلْزَلَة عَقِيدَة الْمُجْتَمَعَات الاسلامية، فيتفرغون لِلْجَدَل وينشغلون بالنزاعات الْفِكْرِيَّة والطائفية.
* تَشْوِيه صُورَة الْخِلَافَة الْعُثْمَانِيَّة ، خَاصَّة السُّلْطَان عَبْد الْحَمِيد ، وَتَشْبِيهِهَا بالاستعمار والاحتلال، وُفِّي الْمُقَابِل تلميع بَعْض الرُّمُوز العميلة لَهُم .
* إحْيَاء النعرات القومية كالطورانية فِي تُرْكِيًّا والفرعونية فِي مِصْر والبابلية فِي الْعِرَاق والاشورية والفينيقية فِي الشَّام ، والبربرية فِي شِمَال أفريقيا.

وَقَد عززوا مَن شَأْن القومية الْعَرَبِيَّة لِتَكُون فِي مُقَابِل النَّزَعَة الطورانية التُّرْكِيَّة ، لِيُحْدِث بِذَلِك انشقاقا كبيراً غَيّ دُولَة الْخِلَافَة ، فتنشغل الامة بِتَمْجِيد تِلْك النزاعات وَالِافْتِخَار بِهَا ، مَع تَجْهِيل الْمُسْلِمِين بِتَارِيخِهِم الاسلامي الْمَجِيد .

* التَّنْصِير والاستشراق وَسِيلَتَان تكيدان لِلْإِسْلَام تَحْت سِتَار خَفِي مُقْنِع .... الاصلاح وَالتَّعْلِيم وَالطِّبّ وَالْمَعُونَات ......
* الاحزاب العلمانية والماسونية، مِثْل الِاتِّحَاد وَالتَّرَقِّي أَوَّل حِزْب سِيَاسِيّ جَلّ أَعْضَائِه مَن الماسون، وَزَرَعُوا فِي مُعْظَم الاقطار والاقاليم الاسلامية مِثْل هَذَا الْحِزْب .

عَمِلْت كَلّ هَذِه الْوَسَائِل وَغَيْرهَا عَلَيّ إضْعَاف الدَّوْلَة الاسلامية وَبَثّ سَمُوم الْخِلَاف وَالنِّزَاع بَيْن أَرْكَانِهَا وَعَلِيّ تَهْوِين الْعَقِيدَة الاسلامية فِي قُلُوب الشُّعُوب الاسلامية، فهيئت الدَّوْلَة الاسلامية لِلزَّوَال وَتَحْوِيلَهَا إلَيّ أَقَالِيم مُتَفَرِّقَة .

وَمَع ذَلِك كَان لابد مَن اتِّخَاذ خُطُوَات عَمَلِيَّة تَقْضِي عَلَيّ مَا تُبْقِي مَن قُوَّة لَدَيّ الْخِلَافَة ، وَمَحْو الِاسْم مَن الْوَاقِع ، فَدَفَعُوا الْخِلَافَة الْعُثْمَانِيَّة لِلدُّخُول فِي الْحَرْب الْعَالَمِيَّة الاولي، فَدَمَّرَت عَلَيّ أَثَرُهَا الْقُوَّة الْعَسْكَرِيَّة الْعُثْمَانِيَّة تماماً.

وَقَد أَخَذُوا فِي تلميع مصطفي كَامِل شَدِيد الْعَدَاوَة لِلْإِسْلَام (ماسوني) لِيَحِلّ مَحَلّ الْخَلِيفَة ، وُفِّي نَفْس التَّوْقِيت عَمِلُوا عَلَيّ تلميع شَخْصِيَّة عَرَبِيَّة ، تعشق الزَّعَامَة وَتَقْدِيس السُّلْطَة فَكَان الشَّرِيف حُسَيْن وَالِي مَكَّة ، فَأَغْرَاه الْغَرْب عَن طَرِيق لورانس الْعَرَب ضَابِط المخابرات الإنجليزي، وكان هُو الْوَسِيط بَيْن الشَّرِيف حُسَيْن ومكماهون عَلَيّ أن يَقُوم الشَّرِيف سِين بِضَرْب الدَّوْلَة الْعُثْمَانِيَّة مَن الْخَلَف ويحتل مِينَاء الْعَقَبَة وَيَفْتَح الْمَجَال لِلْجَيْش الإنجليزي لِدُخُول فِلَسْطِين ، فِي مُقَابِل أن يُعْطِي الشَّرِيف حُسَيْن مَمْلَكَة الْعَرَب .

وُفِّي سِيَاق قُلِب الْحَقَائِق اطلقوا عَلَيّ هَذِه الْخِيَانَة الْكُبْرَى لَقَب الثورة الْعَرَبِيَّة الْكُبْرَى عَلَيّ الاحتلال التُّرْكِيّ .

وَنَجَحَت خُطَّة لورانس ومكماهون، حَيْث لَم يَكُن العثمانيون يَتَوَقَّعُون خِيَانَة الشَّرِيف حُسَيْن فَكَانُوا يَتَوَقَّعُون أن تَأْتِيهِم الضَّرْبَة مَن قُبُل الإنجليز فَقَط .

وُفِّي نَفْس التزامن الَّذِي حَرَّك فِيْه الْغَرْب الْقِيَادَة الْعَرَبِيَّة الْخَائِنَة لِلِانْقِلَاب عَلَيّ الْخِلَافَة الْعُثْمَانِيَّة ، بِوُعُود واتفاقات كَاذِبَة ظَهَرَت اتِّفَاقِيَّة سايكس بيكو 1916 وَالَّتِي انْعَقَدَت بَيْن بريطانيا وفرنسا بمصادقة روسيا عَلَيّ تَقْسِيم ممتلكات الدَّوْلَة الْعُثْمَانِيَّة .

بِمُوجِب هَذَا الِاتِّفَاق حَصَلَت فرنسا عَلَيّ سوريا وَلُبْنَان وَمِنْطَقَة الْمَوْصِل ، أَمَّا بريطانيا فَامْتَدَّت مَنَاطِق سيطرتها مَن طَرْف بِلَاد الشَّام الْجَنُوبِيّ متوسعاً بِالِاتِّجَاه شرقاً لتضم الْعِرَاق والاردن، كَمَا تَقَرَّر وَضَع فِلَسْطِين تَحْت إدَارَة دولية يَتِمّ الِاتِّفَاق عَلَيْهَا بالتشاور بَيْن بريطانيا وفرنسا وروسيا.

وَانْعَقَدَت عِدَّة مؤتمرات واتفاقيات أَخِّرِي تَمّ بِمُوجِبِهَا الْقَضَاء التَّامّ عَلَيّ الْخِلَافَة الْعُثْمَانِيَّة وَتَقْسِيم الدَّوْلَة إلَيّ دويلات بِالشَّكْل الْحَدِيث مِثْل مُؤْتَمِر وَمُعَاهَدَة فرساي الَّتِي خَسِرْت الدَّوْلَة الْعُثْمَانِيَّة خِلَالِهَا أَرَاضِي وَاسِعَة فِي أوروبا وأسيا وَانْتَهَت كإمبراطورية، ومؤتمر سَان ريموا الَّذِي قَسَمْت فِيْه الشَّام الْوَاحِدَة إلَيّ أَرْبَعَة دُوَل ( سوريا وَلُبْنَان والاردن وَفِلَسْطِين ).

وَمُعَاهَدَة لوزان الَّتِي اُشْتُرِطَت فِيهَا انجلترا عَلَيّ تُرْكِيًّا عَدَم انْسِحَابِهَا مَن اراضيها الا بَعْد تَنْفِيذ الشُّرُوط الاتية:

1. إلْغَاء الْخِلَافَة الاسلامية، وَطَرَد الْخَلِيفَة مَن تُرْكِيًّا وَمُصَادَرَة أَمْوَالِه .
2. أن تتعهد تُرْكِيًّا بإخماد كَلّ حَرَكَة يَقُوم بِهَا أَنْصَار الْخِلَافَة .
3. ان تُقْطَع تُرْكِيًّا صِلَتُهَا بِالْإِسْلَام .
4. ان تَخْتَار لَهَا دستوراً مدنياً بدلاً مَن دستورها الْمُسْتَمَدّ مَن أَحْكَام الاسلام.

1. [ سورة آل عمران: 105 ] [↑](#endnote-ref-1)
2. [أبو داود في السنن 4/111 ] [↑](#endnote-ref-2)
3. [ سفر التكوين الاصحاح 11 ، 1 إلي 9 ] [↑](#endnote-ref-3)